عدي عدنان البلداوي

حول اشكالية

تجسيد الأنبياء

الكتاب: حول اشكالية تجسيد الأنبياء
الكاتب: عدي عدنان البلداوي
الطبعة: الاولى
جهة الطبع: مؤسسة البلداوي للطباعة

سنة الطبع: ٢٠١٥م

المحتوى

١- مقدمة ١

٢- اعمال تناولت الانبياء ٣

٣- ردود افعال ٥

٤- ما الاشكالية في تجسيد نبي من الانبياء ٧

٥- المجتمع بين القوى المادية والقوى الروحية ١٧

٦- صناعة الثقافة ٢٢

٧- صناعات غربية ٢٨

٨- المثقف المعاصر والمؤسسة الدينية ٣٤

مقدمة

ليست هي المرة الأولى التي يتم فيها تناول شـــخصيات مقدّسة كالأنبياء عليهم الســـلام في أعمال ســـينمائية أو روايات أو رسوم كاريكاتيرية...

وليست هي المرّة الأولى التي يتظاهر فيها العالم الغربي والعالم الإسلامي مستنكراً هذه الأعمال ...

ان تناول رسّام كاريكاتير أو صحيفة أو كاتب أو مخرج سينمائي لشخصية مقدّسة كالنبي عيسى والنبي موســـى والنبي نوح والنبي محمّد ، من باب حرية الفكر والتعبير أو حرية الرأي الشخصي ، هي باعتقادي أكبر من كونها انعكاساً لفهمٍ أو تصوّر كاتبٍ أو رسّامٍ لشخصيةٍ معينةٍ ثم محاولة تجسيدها أو رسمها ، وهي أكبر من كونها رغبة صحيفة في طبع نسخ اكثر من أجل مكسب مادي اكبر ، وهي أكبـــر من كونها أعمالاً تهدف الى إبـــداء الغيظ أو التذمر من مهاجرين ولاجئين مسلمين أصبحوا كثراً في

اوربا..

وهي أكبر من كونها محـــاولاتٍ لتوثيق انجازاتٍ أدّاها نبي من الأنبياء ممن تناولتهم تلك الأعمال السينمائية أو الصحفية أو غيرها ..

وهي أكبر حتى من مجرد التعرض الشخصي لنبـــيّ من الأنبياء..

أعمال تناولت الأنبياء

قـــدّم المخرج (جريفت) اعمالاً مثل (التعصب) و (الوصايا العشر) عام ١٩٢٤م تناول فيها السيد المســيح عليه السلام ، ثم المخرج (سيسل دي ميل) في فلم (ملك الملوك) عام ١٩٢٤م ، ثم فلم (المسيح يصلب من جديد) عام ١٩٥٧م للمخرج (جول داســان) والكاتب اليوناني (نيكوس كازا تنتزاكيس) وكان عملاً فرنســـياً يونانياً مشتركاً عرض فيه الكاتب فكرته متســائلاً، فيما لو عاد السيد المسيح وعاش بين أتباعه ، هل سيتقبــلون وجوده بينهم في عصرهم الجديد ، بروحيته التي عرفوه بها إبّان دعوته ، أم أنهم سيصلبــــونه؟ وقـــــدّم الكاتب (كازانتزاكيس) عام ١٩٩٠م فيلم (الإغــراء الأخيــر للسيد المسيح) يتناول فيه السيد المسيح كشــخص عادي بعيداً عن النبوّة .. وفي عام ١٩٧٢م ظهر فيلم (الســيد المسيح سوبر ســتار) بــعروض غنائية اســتعراضية

راقــصة ، وكثير من الأفلام التي أثار عرضها اســتياء المشاهدين في أوربــا وأمريكا .. عرض في مصر في الخمسينات والستينات من هذا القــرن فلم (حــياة وألم المسيح) مدبلج إلى العربية ، قوبل بــالرفض لتجســيده شخصية النبي عيسى عليه السلام على الشاشة .. وهناك فلم (نوح) الذي أنتجته شركة (باراماونت) حيث يقــوم الممثل (راســل كرو) بالبــطولة والفلم الذي يظهر فيه النبي نوح مجسداً ، يتحدث عن بناء السفينة التي أنقذ بها النبي نوح الناس من الطوفان .. وفي مجال الصحــافة ، نشرت الصحــف الدنماركية في عام ٢٠٠٦م رســوماً كاريكاتيرية تتناول النبــي محــــمد ، ثم فلم (بـــــراءة المســلمين) الذي بــث على (يو تيوب) عام ٢٠١٢م .. وصحيفة (شارلي ايبدو) الفرنسية التي نشرت رســوما كاريكاتيرية عن النبي محمد عام ٢٠١٤م..

ردود أفعال

قوبلت هذه الأعمال برفض جماهيري كبير في العالمين الغربي والإسلامي ، تنوع ذلك الرفض بين التظاهرات ، والتصريحات ، والفتاوى ، والقرارات..

يرى علماء الدين في العالم من مسيحيين ومسلمين، ان تجسيد شخصية أي نبيّ لا يتناسب مع مقامه ، وانه لا يجوز ذلك .. وعلى الرغم من اعتراض علماء الدين على تجسيد شخصية أي نبيّ في فلم ، فقد عرض فلم (آلام المسيح) عام ٢٠٠٤م في كثير من الدول العربية ، كما عرضت بعض القنوات العربية مسلسل (الحسن والحسين ومعاوية) على الرغم من اعتراض الأزهر في مصر ومرجعية النجف الأشرف على عرضه..

وحول الرسوم الكاريكاتيرية الأخيرة لصحيفة ايبدو الفرنسية التي يتعرض فيها الرسّام إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وآله ، قال المتحدث باسم البيت

الأبـــيض جاي كارني: (نحـــن على علم بـــأن جريدة فرنسية نشرت رسوماً تمثل النبي محمد وبالطبع نحـــن لدينا أســـئلة عن الحـــكمة من وراء نشـــر أمور من هذا النوع... إننا نشدد دائما على أهمية حماية حرية التعبير الواردة في دستورنا ، وبشكل آخر فإننا لا نتساءل حول الحق بنشر أمور من هذا النوع ولكن حول الحكمة التي أملت اتخاذ قـــرار نشـــرها .. (في الســـــعودية هددت السلطات بحجب موقـــع يوتيوب كلياً في البـــلاد ، وفي باكستان دعت الحـــكومة الناس إلى التظاهر الســـلمي احتجاجاً ، ودعا البابا بنديكتوس السادس عشر المسلمين والمسيحـــيين إلى التعاون من اجل وضع حـــــدّ للعنف والحرب .. وأمرت محكمة استئناف اتحادية في أمريكا شركة كوكل بحذف فلم (براءة المسلمين) من موقعها .. هذا بالإضافة إلى تصريحات من وزراء ورؤســـاء في العالم يرفضون فيها مثل هذه الأعمال..

ونظمت مهرجانات وندوات ثقافية منددة هنا وهناك..

ما الإشكالية في تجسيد شخصية نبيٍّ من الأنبياء؟

كان الأنبياء موجودين بأشكالهم وذواتهم بين الناس وهم يؤدون رسالاتهم السماوية الموكلة اليهم ، ولم يكونوا يؤدون ادوراهم من خلال رسل ووكلاء .. فما الفارق بين وجود شخص النبي في حياته بين الناس ، وبين تجسيد دوره في فيلم بعد غيابه ؟

ان وجود شخص النبيّ في حياته بهيئته البشرية المجسدة في المجتمع الذي أُنيط اليه إلهياً القيام بالدعوة فيه ، كان مدعوماً بالبعد السماوي الغيبي أو هو الوحي أو هو البعد الروحي ، فالأنبياء لم يكونوا بعيدين أو غائبين عن الناس ، بل كانوا يعيشون مع الناس حتى أدق التفاصيل ، وكان للباعث الإلهي ، أي المعجزة دورها في شدّ الناس الى النبي ليتمكن من خلال الإعجاز الإلهي أن يمدّهم بالوعي اللازم الذي يراد للمجتمع أن يبلغه كي يتجاوز أزماته

ومعاناته وجهله ، أي أن النبي كان يبـين للناس فاعلية البعد الروحي في الارتقاء بالإنسان من كونه مجرد كائن بشري مادي الى إنسان واعي مدرك ذي أبـعاد أكثر من البعد الوجودي المجرد .. ترى ما الحكمة في ذكر العصا في قصة النبي موسى، ابتداءً من (وما تلك بـيمينك يا موسى) ، حتى (فأوجس في نفسه خيفة موسى) لمّا رأى عصاه تتحـول الى أفعى ، لكنه اطمأن عندما اخبـره العزيز الجليل (سنعيدها سيرتها الأولى)، وصولاً الى (اضرب بعصاك البحر)، ترى أكان الهدف من إظهار تلك المعجزة هو شدّ الناس تحت تأثير الخوف والقـوى الغيبية لإرادة ورسالة موسى ؟ أبـداً لم يكن الأمر كذلك دلالة انه جلّ شأنه طلب من موسى وهارون أن يقـولا لفرعون قـولاً ليناً ، على الرغم من تصريح القـرآن الكريم بـ (انه طغى) ، هنا رسالة واضحـة جداً لمفهوم القوة ، وفي دعاء جبرائيل عليه السـلام (سبحـانه من

قوّي ما أحكمه) ، لم يقل ما اشدّه ، أو ما شابه ، لقد قرن القوّة بالحكمة ، وهذا هو المراد من تعريف القــوّة ، هذا هو مشروع كل نبيّ من الأنبــياء على اختلاف أزمنتهم ومجتمعاتهم ، فمع تمكن النبي موسى من سحرة فرعون وإذعانهم له ، لم يستخدم قوّة الغيب أو قوّة البدن كوسيلة لتأدية الرسالة السماوية وإيصال الوعي الى الناس ، بل كان ذلك عن طريق البعد الروحي عندما اخبرهم أن كل ما حــصل كان بــأمر الله ، وان الهدف من اظهار هذه المعجزات هو الإذعان لقدرة الله والإيمان به ، لذلك آمن الناس ، مقتنعين انه لم يكن سحراً ولا قوى خارقة ، بــل هو إشارة الى وجود مقتدر عالم يريد لخلقــه أن يبــلغوا قدراً كافياً من الوعي على يد أنبيائه ليكونوا صالحــين ، مدركين لقيمة وجودهم ودورهم في الحــياة .. والعصا التي ضرب بها النبي موسى البحر لينجو ومن معه ، ثم يغرق فرعون وجيشــه ، ظهرت على شــكل كويكب

صغير يسقط على البحر في الفلم الذي يتناول قصة النبي موسى..

يبدو لي ان الأمر مبني على أساس الفهم المادي للقوة المجرّدة للعلم ، اذ لا تفسير علمي لإستجابة البحر لضربة من عصا موسى ، لذلك لا يبدو لي ان القائمين على هذا الفلم يريدون ان يغيروا ماورد في المصادر المقدّسة عن قصة النبي موسى ، ولا يريدون ان يتعرضوا لشخصية النبيّ بالسوء ، بقدر ما يريدون ان يقدّموا التاريخ للمشاهد وفق البعد المادي للعلم والقوّة بمفهومها في العصور الحديثة ، وليس وفق البعد الروحي ، وهذا العمل بتكاليفه الباهضة التي تتجاوز المائة مليون دولار في بعض الأفلام ، هدفه المشاهد وحسب..

واذا كان النبي محمّد وهو محاط بعدد من الفقراء المستضعفين ، يستمدّ قوته بوجود عامل النبوّة والمعجزة

الإلهية ، فمن أين استمدّ أبو ذر الغفاري وسلمان المحمدي وعمّار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر وغيرهم من المسلمين قواهم وهم يتصدون مدافعين عن دين نبيّهم بوجه قوى متسلطة ودول جبّارة وإمبراطوريات عظيمة..

انه البعد الروحي الذي أودعته النبوّة في أعماق نفوسٍ ارتبطت أجسادها بجذور تراثها وتاريخها وأصولها فكانت قوة قلبت كل الحسابات الماديّة للطرف الآخر..

وعلى الرغم من أن العلم المادي لا يتقبل بقاء جسم الإنسان مدّة زمنية طويلة بلا أضرار ، فقد بقي أصحاب الكهف كل تلك السنين الطوال ، دون أن تبلى أجسامهم ، وظهروا إلى الناس بعد مئات السنين ليوصلوا رسالة ربّ العلمين اليهم ، ثم ماذا حصل بعد ذلك ؟ لم يلبث أصحاب الكهف طويلاً بعد ظهورهم حتى ماتوا ، وهنا تتجلى صورة الحكمة والقوّة وفق البعد الروحي .. كلنا

نفتخر بـــأن الإســـلام وصل بـــلاد فارس والروم والى مساحات كبيرة وبعيدة ، لكن أكثرنا لم يسأل كيف تمكن أولئك المســـتضعفون الفقـــراء المهاجرون بـــعيداً عن ديارهم وأهلهم أن يصلوا بالإسلام الى أرجاء الأرض..

ان الفارق بين وجود النبي بين الناس وبين رحـــيله ، هو انقطاع الوحي في غياب النبـــي ، فما الذي يبقـــى بـــعد انقطاع الوحي ؟ .. انه الوعي..

فالوعي هو الإمتداد الإجتماعي لرسالات الأنبياء بـــين الناس ، فعندما يظهر النبي مجسداً في الفلم أمام المشاهد، ستتشكل في ذهنه بمرور الوقت صورة زمكانية للنبي لا وجود للبـــعد الروحـــي فيها ، فيغدو النبـــــي للأجيال المتلاحقة شخصية تاريخية أدّت دوراً إيجابـــياً يصعب الإتصال بها في عصر الماديّات وتحكّمها بـــكل شـــيء حتى العلم .. فينشأ نوع من الغربة بين المجتمع وتراثه، أو يبدو الزمن بعيداً بـــين الحـــاضر والماضي بـــدرجة

يصعب معها الشعور بالتواصل ، وهدف هذا الطرح هو الحفاظ على ديمومة نجاح الماديّة والصور التي تشكلت على إثره مجتمعات العالم اليوم..

لم يكن الإسلام ديناً روحياً وحسب ، بعيداً عن جوانب الحياة الأخرى المادية والإنسانية والإجتماعية وغيرها ، فقد عاش النبي مع الناس وتطرق الى مشاكلهم وهمومهم ومعاناتهم ومستوياتهم المعرفية ، والإسلام ناقش حتى أدق تفاصيل حياة المسلم الشخصية ، ليس من باب فرض الإسلام ، بل من باب عرض الإسلام ليبقى للإنسان حق الإلتزام من عدمه ، فهو مسؤول غداً أمام الله عن كل شيء ، وقد أقسم جلّ شأنه (فوربك لنسألنهم أجمعين عمّا كانوا يعملون) ، وهنا يأتي دور الوعي ليوجّه الإنسان الى الطريق الذي يضمن وهو يخطو فيه أنه في الإتجاه الصحيح الذي يكفل له حياة جيدة وآخرة يدخلها من باب رحمة الله ، لا من غضبه..

اذن علينا ان نفهم هذه الأبعاد للإسلام في المجتمع ، فقد أملت الصناعة العالمية للثقافة فهماً مادياً مجرداً يهيمن على كل شيء ويسخر كل شيء لصالح المادة ، فقد فرض علينا في مجتمعاتنا العربية والإسلامية هذه المفاهيم بحكم ارتباطنا الإقتصادي والتجاري والسياسي والثقافي بدول الغرب ، واغفلنا مفهوم الإسلام للمادية أو أننا لم نفهم ذلك واكتفينا بالمظاهرات المنددة لتلك الأعمال والأفلام التي تجسّد شخصية نبينا ، أي تأثرنا معنوياً ، بينما هناك جوانب اخرى علينا أن نتأثر لها ، فالإسلام يدعونا الى عبادة الله وفي الوقت نفسه هو يمنهج لنا طريقة التعامل مع حياتنا في ظل الإسلام..

ان ما يشهده العالم اليوم من ظهور حركات وجماعات إسلامية متطرفة حد الإجرام ، يذبحون ويصلّون ، بل حتى انهم يقدّمون أرواحهم كأنتحاريين ، لأنهم يعيشون اعتقاداً املاه عليهم مشايخ وعلماء دين ، كثيرون

يتساءلون ، كيف يقدم شاب على تفجير نفسه ، وكيف تجد القاعدة وداعش وغيرها من التنظيمات الإرهابية من ينتمي اليها من مختلف انحاء العالم وخصوصاً من المسلمين المقيمين في اوربا ، في الوقت الذي كان يفترض انهم لمسوا حيوية الحياة الإنسانية السلمية في دول تكفل حريات الجميع على اراضيها..

يقول الدكتور شريعتي (واننا اليوم لا نتمكن ان نقدس شيئاً لانعرفه أو نتعبد بعقيدة لا نعرفها وبالخصوص تلك الطبقات المثقفة فان مسؤوليتها في معرفة مقدساتها اعظم وهذا ليس واجباً إسلامياً فقط بل هو واجب علمي وانساني ايضاً . فقيمة كل انسان بمقدار معرفته وفهمه لمعتقداته لأن الاعتقاد وحده ليس فخراً واذا كنا نعتقد بشيء لا نعرفه جيداً فلا قيمة في ذلك بل القيمة تكمن في المعرفة والفهم الدقيق لما نعتقده ولأننا نعتقد بالإسلام فلا بد ان نعرفه جيداً ولمعرفة الإسلام بشكل صحيح لا بد ان

نختار المنهج الصحيح).

نعم انه الاعتقاد لوحده دون المعرفة ، فابن لادن زعيم تنظيم القاعدة كان مهندساً والظواهري طبيباً والبغدادي حاصلاً على الدكتوراه، بمعنى انهم لم يكونوا من الجهلة من وجهة نظر عامة الناس ، ومع ذلك كانوا يصلّون في الصحراء وثغور الجبال ويكبرون إثر تفجير سيارة راح ضحيتها العديد من المدنيين والأطفال والنساء ، بل انهم يقرنون تحركاتهم بالمسلمين الاوائل ، ويطلقون اسماء تاريخية على هجماتهم الإرهابية ، ويتكنون بكنى مسلمين عاصروا النبي او كانوا من التابعين .. انني لست أرى بعداً كبيراً بين فكرة تجسيد الأنبياء في الأفلام السينمائية ، وبين هدم قبور الأنبياء ، فتلك مشاريع غربية تعمل وفق صناعة الثقافة الغربية المادية المعاصرة ، وهذه مشاريع شرقية تعمل وفق صناعة الإرهاب القائمة على معتقدات تعوزها المعرفة

الصحيحـــــة في مجتمعات تفتقـــــر الى الوعي والفهم الصحيح لدينها الذي تتمسك به وتتقبل فقـــرها ومعاناتها على ان يمسّ نبيها برســـوم ســـاخرة أو فلم ســـينمائي يتعرض لمسيرته التاريخية ..

المجتمع
بين القوى المادية والقوى الروحية

كان البعد المادي هو محور حياة ووجود الناس في أوربا قبل مجيء المسيح عليه الســـلام ، والذي دعا الناس إلى إضفاء البعد الروحي في حـــياتهم ، فانتهى تأثير البـــعد المادي بفعل قوّة ما ينتج عن البـــعد الروحـــي في كلام وسلوك النبي بين الناس ، إلى أن جاء القـــرن الســـادس عشر والقرن السابع عشر ليعود للبـــعد المادي دوره في الحياة ، فظهر توجه العلم للحياة بعيداً عن هيمنة الكنيسة على يد مثقفين شـــكلوا طبقـــة في المجتمع تبحـــث عن

الحرية بعيداً عن قـيود الكنيسـة ، وعن العلم من اجل الحياة ، ونجحـوا في محـورة النواحـي الاقـتصادية والثقافية والسياسـية والاجتماعية للناس حـول البـعد المادّي، فبلغت بلدانهم ما وصلت اليه اليوم..

ان ظهور أعمال سينمائية ورسوم كاريكاتيرية وروايات تتناول أنبياء الله، قد تكون محاولات لإقحام البعد المادي في التاريخ الديني عموماً .. باعتقـادي ان الهدف ليس النبيّ موضوع الفلم أو الرواية أو الرسوم بقـدر ما هو البعد الروحي لدين ذلك النبيّ في المجتمع ، ففي الغرب طقوس الناس وعاداتهم وعباداتهم وحرياتهم محترمة ، وهناك قـوانين تكفل للناس تلك الحـريات ، فمن غير المعقول أن تهدف تلك الأعمال إلى الإساءة الشـخصية لنبيّ أدى دوراً ايجابياً في حـياته بـين الناس ، كما إن اغلب هذه الأعمال كانت تركز على إظهار النبي مجسّداً أمام المشـاهد ، وهذا التركيز باعتقـادي يختفي وراءه

مشروع المادية المعاصرة في مواجهة البعد الروحي ، البعد المنافس أو هو البعد الذي يمكن ان يهدّد نجاح وهيمنة المادية على كل شيء حتى العلم في الآونة الأخيرة ، فالبعد الروحي بعد غير ملموس ، ولا يخضع للاستقراء أو الاستنتاج أو المنطق العلمي المجرّد ، فالمادية لا تقبل ما هو غير ملموس لتجري عليه التجارب والتحاليل ، بمعنى ان وجود البعد الروحي من شأنه في مرحلة ما ، أو في زمن ما ، ان يغلب حسابات المادية المجرّدة ، وهذا يشكل خطراً كبيراً على ديمومة السيادة العالمية الغربية اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً على العالم..

إن الضرر الأكبر من هذه الإساءات ينعكس على مجتمعات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ودول الشرق ، كونها مجتمعات في اغلب الأحيان مقلّدة أو تابعة أو تائهة .. لأن عنوان حرية الرأي وحرية التعبير يجذب

اليه كثير من عامة الناس ومن المثقــــــــــــفين العرب والمسلمين ممن يقلدون الغرب في ثقافاتهم وقـــد أبـــدى بعضهم تأييده وعدم رفضه لتجسيد شخصية النبي محمد في فيلم ، وقد نسمع ذات يوم عن قـــيام رسّام أو كاتب أو مخرج سينمائي عربي أو مسلم بنفس العمل الذي قام به الرسّام الدنماركي أو الفرنســـي ، وأنا لا استبـــعد ذلك ، مادمنا لحد الآن نعيش بعيدين عن أنفسنا ، وفي كثير من الأحيان نجد أننا صرنا أناساً آخرين ، يسميهم البـــعض (متطورين) ، وفي الحقيقة ان التطوّر أمر جيد ومطلوب لكن على أن لا يكون بعيداً عن الواقع ، والواقع ليس هو مفروضات الحياة الاقتصادية والسياسية في مجتمعاتنا ، انه الارتباط بالقيم في النشوء والارتقاء والتطور..

لقد اختلطت الأمور على كثيرين ، حتى على مســتوى مسؤولين في البلاد ، فعندما يصرّح احدهم في الحكومة العراقية وهو رجل مثقف فيقــول إن الإرهاب أصبـــح

ثقافة، وان الفساد أصبح ثقافة .. فإننا لا نجد أنفســـنا أمام أشخاص قادرين على تقديم مشـــاريع قـــوية توازي تلك المشاريع الغربية الكبرى التي نتحـــدث عنها .. وعندما يبرر أحد حكام الدول العربية الإســـلامية ان الملتحـــين المسلحـــــين في داعش هم ثوّار ، ويعدّهم الأزهر في مصر بالـــمسلمين المتطرفين ، على الرغم من الأعمال التي يقومون بـــها على مرأى ومســـمع من العالم .. إن شيوع هذا النوع من القـــادة السياســـيين والمتدينين في العالم العربي والإسلامي لا يعطينا مجالاً لتصوّر وجود إمكانات لمواجهة هذا النوع من الصناعة الثقـــــافية الغربية..

صناعة الثقافة

الثقافة هي قدرة الفهم والإدراك والاستنتاج المسؤول تجاه الذات وتجاه المجتمع وتجاه التراث وتجاه الحياة والوجود بشكل عام ، ونحن في مجتمعاتنا العربية المسلمة لدينا أعدادا من المثقفين الحقيقيين ، بمعنى أنهم يمتلكون ثقافة نابعة من فهم صحيح واع للتراث والتاريخ والواقع المعاصر و يبدو ذلك في أعمالهم ونشاطاتهم وكتاباتهم ، إلا أن المشكلة تكمن في أن هؤلاء المثقفين إلى يومنا هذا لا يشكلون إلا قلّة، لذا فهم لا يستطيعون أن يشكلوا طبقة اجتماعية فاعلة ، يمكنها أداء دورها المطلوب في المجتمع ، فتأكيد القرآن والنبي الخاتم على أهمية العلم المرافق لخشية الله ، أي بوجود البعد الروحي، يعني أن المسؤولية بعد الأنبياء يتحملها المثقف الحقيقي ، أما (العلم للحياة) الذي اعتمده مثقفوا أوربا في القرن السادس عشر ، فقد أودى بالعلم تحت هيمنة المادة

في القرن الحــالي .. هناك عدد من المثقــفين المتأثرين بنهضة أوربا يحاولون أن يقلدوا تجربة المثقف الأوربي في بلدانهم ، وهنا لابد من الإشــارة إلى المفكر الشــهيد الدكتور علي شريعتي الذي دعا إلى (العودة إلى الذات) والى الانتباه إلى الفارق بين (المثقف الأصيل والمثقف المقلد) ، يقول شريعتي: (مفكرو أوربا اشتروا حــرية الجماهير وعظمتها ونضجها وقوتها وثروتها ورفاهيتها وتبلور شخصيتها واشــتروا نضج العلم وضحــوا في سبيله، اشــتروا كل هذه الأمور بأرواحــهم وحــياتهم وتعرضهم لمحاكم التفتيش ومعاناة أمور بلغت الإلقاء في النار والإحراق والسلخ ، كل هذا حدث حــتى تشــكلت طبقة المفكرين في أوربا ، أما في المشرق فقــد شــكلت على نفس الصورة بأمر من رينيه لابون ، وخطط علماء اجتماع غامضين ملحقين بمراكز الاستشراق وحدث أن توصلنا إلى نتيجة عكسية تماماً لما توصلت إليه أوربا) ..

إننا في عالمنا العربي الإسلامي ، بحاجة إلى أعمال سينمائية ترقى في إنتاجها وأمانتها في نقل أحداث التاريخ مع إضفاء البعد الروحي على شخصية النبي في أحداث الفلم ، ما يشدّ المشاهد إليها ، كما شرعت جمهورية إيران الإسلامية في مثل هذه الأعمال ونجحت في ذلك ، وبمقارنة بين فلمين عن السيد المسيح ، احدهما إنتاج غربي يجسد شخصية النبي ، وآخر إيراني يظهر فيه النبي رجلاً يملأ وجهه النور ، سيرى المشاهد إن النور الذي يملأ وجه الممثل وهو يؤدي دور النبيّ لا يشكل إعاقة فنية أمام إنتاج الفلم .. بالإضافة إلى ما يعنيه ذلك النور ، فهو من جهة يمثل قدسيّة النبي ، ومن جهة أخرى فهو قادم من الماضي عبر أحداث الفلم ، وهذا الشعور يقرّب المسافات الزمنية بين المشاهد وبين تراثه، أي يفعّل حضور البعد الروحي في المشاهد .. أما ما جاء على لسان النبي في القرآن الكريم (انما أنا بشر

مثلكم يوحى اليّ) ، فهي ليست كي نتعامل مع شخصية النبي بشكل مجرد أو مجسّد ، بقدر ما هي لكي لا يغدو ما نتعلمه من نبيّ تجري على يديه معجزات تدعمها السماء، واقعاً تحت تأثير الرهبة أو الإندهاش من قوة تلك المعجزات ، والذي قد يزول برحيله ، وهذا خلاف ما يتبناه الأنبياء في سعيهم الى تعريف القوة من خلال العقل والحكمة ..

لذلك فالنبيّ بشر مثلنا، إلا أنه يمتلك بعداً روحياً من خلال الوحي، يعلمنا كيفية انتقال ذلك البعد الروحي الينا كي تستمر رسالته السماوية اجتماعياً بعد رحيله وانقطاع الوحي ، كي يصبح البعد الروحي حاضراً لدينا من خلال إيماننا ، ومن خلال القيم التي تعلمناها من النبيّ ..

ان حضور البعد الروحي في الإنسان ، يمنحه قوة تدعم قدراته البدنية والنفسية والعقلية والعاطفية عندما يشوبها

ضعف أو تهددها ضغوطات معينة ، بهدف الحفاظ على منظومة الإنسان بعيداً عن الانحدار أو الانهيار اللذان قد يجمدا الحياة ويحيلان الإنسان إلى آلة تحركها مصانع ومشاريع عالمية تدعم اقتصاد من يقف وراءها .. واذا كان ابراهيم الخليل نبياً عندما واجه نار نمرود العظيمة بعين متطلعة الى السماء ، فإن شخصاً مثل ميثم التمّار لم يكن نبياً ولا وصياً عندما أمر عبيد الله بن زياد بصلبه وقطع يديه ورجليه ولسانه ثم رميه بالرمح ، وكان ذلك لعدة أيام وميثم مصلوب دون ان يتخلى عن القيم المحمدّية التي استقاها من نبي الأمة على يدّ الإمام عليّ عليه السلام .. وحتى عندما اخبره الإمام بما سيحصل له، لم يكن رد فعله ان يطلب من الإمام عليّ ان يدعو الله لينجيه مما سيحل به ، لكنه تساءل ان كان ذلك التعذيب الوحشي سيرغمه على الضعف والتخلي عن قيمه الإسلامية المحمدّية ، فلما طمأنه الإمام انه سيكون في

سلامة من دينه ، لم يبال (ميثم التمّار) رحمه الله بالعذاب والموت ..

واذا كان (ميثم التمّار) قـد تأثر بقربـه من علي عليه السلام ، فجعله طاقة روحية كبيرة لا تتأثر بتهدم جسمه البشري ، فاحـتمل ما مورس عليه من التعذيب حـتى الموت ..

فمن كان وراء ذلك الشاب العشريني ممن القـت مفارز حزب البعث القبض عليهم وهم يتوجهون لزيارة الحسين عليه السلام فاخذوهم الى خارج المدينة وسألهم الجلاد: من منكم مع صدام ومن مع الحسين؟ فقام ذلك الشـاب ليقول: أنا مع الحسـين ، فأطلق الجلاد الرصاص عليه فمات من فوره ، ثم أعاد نفس السؤال ، فقام اليه شـاب آخر ليقول له أنا مع الحسـين ، على الرغم من انه رأى مصرع صاحبه أمامه ، فهو بـالتأكيد لا يتوقـع مصيراً أفضل ، فما الذي دفعه الى ان يحذو حذو صاحبه، وفعلا

اطلق الجلاد الرصاص عليه فقتله ..

انه رصيد القيم الذي يحمله كل شخص ، ثم المعرفة بتلك القيم ، ثم الحفاظ عليها ، ثم الموت من اجلها عندما يتعلق الأمر بين الحفاظ عليها أو الحفاظ على الجسم البشري المجرد ، وهذه المراحل تنمو بوجود البعد الروحي في ذات ذلك الشخص..

صناعات غربية

عندما انتفضت الجماهير العراقية عام ١٩٩١م ضد نظام البعث ، اختارت أمريكا أن تضرب المنتفضين وتدعم بقاء نظام صدام ، لأن أمريكا لم تكن تتوقع ما حصل ، ولم تكن قد خططت لمرحلة ما بعد صدام كما قال احدهم في لقاء تلفزيوني قبل الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٣م ..

مشكلة امريكا ليست في انها ضد تشكيل حكومة في

العراق أو أي بــلد آخر ، لكن مشـــكلتها في نواة تلك الحـــكومة ، لذلك اختارت ان تدعم صدام في انتفاضة ١٩٩١م لتطيح به هي عام ٢٠٠٣م من خلال العراقيين ، وجاءت بأشخاص عراقيين مثقفين مقــيمين في اوربــا وامريكا يعارضون نظام صدام ، ليكونوا في مواقـــع القــيادة في العراق ، وتفاجأ الناس عندما لم ينجح اولئك المثقفون في بناء الدولة في بــلادهم ، كما لم ينجح جهلة النظام السابق ، فالمعارضون الذين قدموا الى البلاد بعد غربتهم يحــملون شــهادات عليا واختصاصات علمية وكثير منهم كان ناجحاً في عمله على صعيده الشخصي عندما كان في اوربا وأمريكا، لكنه فشل عندما اصبح في موضع القيادة في بلاده ، ربما تكمن المشكلة في انهم لم يكونوا مثقفين بالمعنى الحقيقي، هم مختصون في مجال الطب والهندســة والاقــتصاد والقــانون وغيرها من مجالات المعرفة ، لكنهم لم يكونوا أصحــاب ثقـــافة

صحيحـــة بواقـــــع وتراث مجتمعهم ولم يكن لديهم أي مشروع قائم على أســـاس هذا الفهم والوعي ، فكانت كل مشاريعهم عبارة عن محاولات وتجارب استمرت اكثر من عشر سنوات دون ان ترتقي حتى الى مستوى تقديم الخدمة الصحيحة للمواطن ، وليس الى مســـتوى بـــناء الدولة ، على الرغم من تمكن كثير منهم كاحـــــــزاب وقـــيادات في الدولة وتبـــنيهم شـــعارات : نحـــن خدّام الشعب..

وربما كانوا مثقفين حقيقيين لكن المشروع الأمريكي في العراق كان أكبر من مقـــدرتهم على طرح مشـــاريعهم الوطنية ، وسواء كان هذا السبب أو ذاك فهو ما تبحـــث عنه دول الغرب العالمية ، وهذا ماكانت تخشـــــى عدم تحققـــه فيما لو انها دعمت انتفاضة ١٩٩١م وأطاحـــت بنظام صدّام .. كما ان امريكا ليست ضد تشـــكيل جيش في العراق أو في أي بـــلد آخر ، لكنها ضد بـــــذرة ذلك

الجيش ، وقد رأينا موقفها المتردد من الحشد الشعبي بعد فتوى المرجعية في النجف الأشرف ، فهذه البذرة عراقية حقيقــية ، وهنا تكمن الخطورة بالنسبــة لأمريكا ، فهي تريد جيشاً افراده عراقيون أما بذرته وهيكلته فينبغي ان تكون أمريكية ، لذلك ظهرت محاولات هنا وهناك للنيل أو لإضعاف هذه البذرة العراقــية في أرضها من خلال إثارة واستغلال محدودية الرؤية لدى كثير من القيادات السياسية والدينية ، فكانت فكرة تشكيل الحرس الوطني ، وفكرة الاستنجاد بقــوات دولية ، وفكرة تشــكيل جيش سنّي، على الرغم من وضوح الفتوى ودعوتها القادرين على حـــمل الســـلاح للدفاع عن الأرض والعرض والمقدسات ، ورأينا تصريحــات أمريكا بــخصوص العمر الزمني للإرهاب في العراق والذي بـــلغ ثلاثين عاماً في أشد التوقعات الأمريكية ، وانه لا بد من نشــر آلاف القوات الامريكية لضمان القــضاء على داعش ،

على الرغم من حجم الانتصارات الكبيرة التي حققتها قوات الجيش والحشد الشعبي ، واشارت الى انهم لم يحرروا سوى مساحات قليلة جداً من الأراضي التي يحتلها داعش ، وحتى إلقاء المساعدات والأسلحة في المناطق الخاضعة لسيطرة الإرهابيين..

كل هذه المحاولات على الأرض العراقية ، لا تقل أو لا تبتعد كثيراً عن تلك المحاولات البعيدة المدى الرامية الى إقحام البعد المادي في تاريخ الأديان والأنبياء ، لإضعاف حيوية البعد الروحي الرابط بين الناس وبين تراثها وتاريخها .. امريكا مع حرية التعبير ومع حرية الرأي ، وفي الوقت نفسه هي ضد الحرية التي تصنعها المجتمعات بعيدا عن الاستيراد الغربي لمفهوم الحرية..

مثلما هناك صناعات غربية للأجهزة والملابس والأغذية ، هناك صناعات غربية للثقافة والنيابة الفكرية وصناعة القرار ، فتلك الصناعات لها من التجار من

يروج لها في الشرق ، وهذه الصناعات لها من المثقفين من يروج لها أيضاً ، فقد رأينا ردود أفعال لكثير ممن نعدهم من المثقفين العرب والمسلمين ، كانت مع ، أو لم تكن ترفض فكرة تجسيد شخصية النبي أو تناوله في رسوم ساخرة ، معللة ذلك بحرية التعبير والرأي..

يقول الدكتور شريعتي:(كان من ثمار مقاومة الدين في أوربا : حرية الفكر والنضج الفكري والمدنية المزدهرة وأنواع التقدم العلمي السريع والمدهش في كل مجالات الحياة ، لكن نفس هذا الأمر عندنا ، أي مقاومة الدين في المجتمعات الإسلامية وحتى غير الإسلامية ، كانت أولى ثمارها وأسرعها وأفدحها هي تحطيم السد الذي كان يقف حائلاً في وجه نفوذ الاستعمار الاقتصادي ونفوذ فلسفة الاستهلاك وغلبتها والانحطاط الفكري والانحراف وما اليه من أنواع الغزو الذي أبليت به المجتمعات الشرقية) مسؤولية المثقف ص٧٣ ..

يرى الدكتور شريعتي ان مثقف القرن السابع عشـــر في أوربا نادى بالقومية كي يواجه عالمية البابا ، وأكد على مادية العلم كي يواجه تكريس العلم لخدمة الكنيسة ، ونبذ الإقطاعية والارستقراطية لأن الكنيســـة كانت تؤيدها ، واختار المثقف الأوربي الديمقراطية لتكون بـــديلاً عن الارستقـــراطية التي أيدتها الكنيســـة ، ودعا المثقـــف الأوربي إلى الحرية كي يتخلص من ســـيطرة ورقابـــة الكنيسة ..

المثقف المعاصر والمؤسسة الدينية

بعد الأحداث الأخيرة في العراق منذ سقوط نظام حزب البعث وحتى المواقـــف الأخيرة التي أنتجتها المؤسســـة الدينية والأحزاب السياسية والمنظمات والجهات الثقافية ، لاحظنا المواقف الايجابية في فتاوى وبيانات مرجعية النجف الأشـــرف من خلال الدعوة الى الشــــراكة في

الوطن ، والى تهدئة النفوس في وقـــــــت الأزمات والتشنجات الرامية الى اثارة الطائفية بين العراقـــيين ، وصولاً الى فتوى الجهاد الكفائي الداعية الى حـــــــمل السلاح دفاعاً عن الوطن والعرض والمقدسات ، ودعوة المتطوعين الى الانخراط في القوات المسلحة الرسمية ، ودون تمييز هذه المنطقـــة عن تلك وهؤلاء عن اولئك ، ووجدت تلك الفتوى ملايين الشباب والكهول ممن حملوا ارواحهم على اكفهم وخرجوا الى الشوارع مســـرعين ملبين نداء المرجعية ، نداء العرض ، نداء الوطن ، نداء القـــيم والمقدســـــات ، على الرغم من ان اغلب هؤلاء المتطوعين لم يكونوا منتسبين الى احـــزاب دينية ولعل بعضهم يفتقر الى المعرفة بالامور الفقـــهية في كثير من مفاصل حياته اليومية .. انه ذلك البعد الروحي الذي كان وراء توجه تلك الملايين من المواطنين الى ساحـــــات القتال..

ان الوضع في العراق خصوصاً ، ليس بحاجة الى تكرار تجربة الغرب في القرن السادس عشر ، كما يرى البعض ويدعو له..

اننا بحاجة الى مثقفين يروجون الى العلم والى حرية الرأي والى التطور من خلال قيم الإسلام ، وليس من خلال تقليد تجارب دول أخرى وان كانت ناجحة هناك .. لقد جرّبنا ففشلنا ، ذلك لأننا أغفلنا جغرافية المكان الذي نكرر فيه التجربة ، لقد لاحظنا عملياً دور المرجعية الدينية في النجف الأشرف تجاه المواقف والأزمات الأخيرة في البلاد ، ولاحظنا حجم التفاعل الجماهيري الإيجابي بمختلف الشرائح والطبقات ، وهذا كله يصب في بناء طبقة اجتماعية مثقفة واعية بين الناس ، لذا فإن تواصلاً اجتماعياً مطلوباً بين المؤسسة الدينية والمثقف الحقيقي ، لأن هذا التواصل من شأنه ان ينمي الحركة الثقافية في المجتمع ، فالمثقف الحقيقي يهدف الى

مجتمع متطور متعلم غير مسـيّر لا سياسـياً ولا دينياً ، وهذا التوجه يتفق مع طروحـــات المرجعية الدينية ، عندما نفهم الفارق بين التقليد والتقييد..

مجتمعنا في اغلب الأحوال يتأثر بشكل مباشر بالسياسي ورجل الدين ، ويتأثر بشكل غير مباشر بالمفكر والكاتب والمثقف ..

وحيث ان السياسي لم يثبت توجهاً نظيفاً لصالح الشـــعب في كثير من الاحداث والمواقــف والازمات ، فإن رجل الدين واعني به المرجعية الدينية قد اثبــتت ان توجهها خالص نظيف لصالح الشعب ، عموم الشعب ..

كما ان المثقــفين من كتاب ومفكرين وادبـــاء تتبـــاين مستويات المسؤولية لديهم ، وما يعنيني من هذه الشريحة هو المثقف المسؤول ، الذي يظهر في كتابـــاته وافكاره ميولاً واضحاً نظيفاً لصالح المجتمع ، اذن اصبــح لدينا مؤسسة دينية اثبتت عملياً نوعية توجهها لصالح المجتمع

وشريحة من المثقفين المسؤولين اثبتوا من خلال كتاباتهم ونشاطاتهم انهم يعملون لصالح المجتمع ، لذا لا بد من استثمار نظافة هذه التوجهات في الفريقين لأجل صناعة طبقة اجتماعية مثقفة واعية ، أي مسؤولة ، وعملية صناعة هذه الطبقة تتم من خلال التقارب بين المثقف والمتدين ، تقارباً لا ينتج عنه تأثير أحدهما في الآخر ، لتكون النتيجة إما ثقافة متدينة أو ديانة ثقافية، بل تقارب ينتج عنه انساناً جديداً أو فكراً جديداً ، ينتج عنه ثقافة إسلامية مسؤولة تصل الى الناس عن طريق الخطباء عبر المساجد ، فنحن في مجتمعاتنا العربية الإسلامية نقدّس المسجد ، لأنه ذات يوم كان مبعث حضارة إسلامية رائعة عندما كان يعتلي منبره النبي الخاتم ، واليوم ينبغي ان يكون المسجد وسيلة تقريب من خلال الخطيب الواعي ، بين المجتمع والمثقف الحقيقي ، فعندما يتقبل المتدين نقد المثقف لقضايا إسلامية تخص

واقع المجتمع ، نقداً لا يخرج عن قيم الإسلام المحمدي ، ويتقبل المثقف نقد المتدين ضمن نفس القـيم مع مراعاة جغرافية البلاد والتاريخ بكل احـداثه وتراث الإسـلام وقيمه ، عندما نفهم الفارق بين النقد البنّاء والنقد الهدّام..

ان وجود المثقف المسؤول على مقربـة من رجل الدين المسؤول من شأنه ان يعطي للمجتمع صورة واضحـة للإسلام ، لا يشعر أمامها انها صورة قـديمة وتاريخية سواء أكانت جميلة أم لا ، بل يراها صورة حيوية معبرة معاصرة وفي الوقـت ذاته غير منفصلة عن التراث والتاريخ ، هكذا تبـدو لي المرحـلة المقبـلة التي علينا التحرك نحوها ، مرحلة إعداد ارضية ينجح عليها إقامة مشروع الوعي في المجتمع باتجاه تقدمي..

اعتقد ان من ضمن نشاطات هذه المرحلة التي نتحـدث عنها ، هو دعوة المؤسسة الدينية لاصحاب الفكر البناء المسؤول واصحاب القلم المسؤول من كتاب ومثقـفين

واكاديميين ممن لديهم اعمـــال جديـــدة تخـــدم تطـــور المجتمع، وتدعم الفهم الإســـلامي الصحـــيح ، وتبـــني افكارهم عن طريق المنبـــر ووســـائل الإعلام وطبـــع نتاجاتهم من قبـــل الجهات المســـؤولة عن العتبـــات المقدسة..

هذا النوع من المحـــاولات والنشـــاطات يؤســـس لجهد جماعي لدخول مرحلة البحث عن الطرق المتعددة لعلاج واقعنا ، والوقوف على المعاناة لتجاوزها ، فنحن لا نزال نتحدث عن المعاناة والهموم والمشاكل فقـــط ، الخطيب يؤدي دوره من على المنبر ، والمثقـــف يؤدي دوره من خلال كتابـــاته ، كل على حـــده ، والنتيجة اننا نقـــوم بمحاولات لتحسين الوضع أو لحل جزئي لمشـــكلة ما ، لكن محاولاتنا لا تتبنى مشروعاً أو منهجاً تتطلع بـــه الى الحـــلول الجذرية لتلك المعاناة والمشـــاكل ، فمثلاً رجل الدين يدعم فكرة تكوين الأســـرة ويحـــث على تزويج

الأبناء والبنات وفق معايير إسلامية اخلاقية رائعة ، والمثقف يتحدث في كتاباته عن معاناة الشباب وعدم مقدرتهم على الزواج بسبب التكاليف الباهضة والظروف الاقتصادية للمواطن ، وبعض الأحزاب الدينية أو الحكومية تطرح مشروع الزواج الجماعي لعدد من الشباب المتعففين..

والناس في حيرة من أمرهم ، فمن جانب هم متعلقون روحياً بالإسلام وقيمه ، ومن جانب آخر يعيشون واقعاً اقتصادياً اجتماعياً سياسياً يستورد الثقافة والعادات والأفكار من الغرب ، وقلة أولئك الذين يطبقون الإسلام بوعي في حياتهم وشؤونهم الخاصة..

ان جميع هؤلاء يقدمون خدمة لعدد أو لشريحة من الناس ، لكنهم لم يقدموا حلاً جذرياً لمعوقات تمكين الشباب من الزواج ، مع إنهم جميعاً يدركون حجم هذه المشكلة ، لذا فإنني أرى أن التقارب الذي تحدثت عنه

بين المثقف ورجل الدين ، سيسهم في صناعة طبقة من المثقفين في المجتمع ، واذا ما تشكلت هذه الطبقة فإنها ستكون فاعلة بحكم كثرتها وشيوعها بين الناس ، وهذه الفاعلية المقترنة بالوعي الموجود أصلاً في رجل الدين والمثقف موضوع التقارب ، سيعطي لهذه الطبقة ، لهذا الإنسان الجديد في المجتمع إمكانية تغيير الواقع وصناعة الغد وفق قيم إسلامية نادى بها نبي الأمة وعمل بها نفر ممن انتقل اليهم البعد الروحي الواعي..

في العراق توجد اعداد كبيرة من الناس ، مرتبطة روحياً بالمرجعية الدينية ارتباطاً مباشراً، وقد رأينا خروجهم إلى الشوارع لمجرد سماعهم بفتوى الجهاد ، وفي الوقت نفسه تفتقر هذه الطبقة الكبيرة من الناس إلى الوعي والى مستوى معاشي مقبول ، وبالمقابل هناك شريحة صغيرة من المثقفين يمتلكون الوعي ، لكن يعوزهم الارتباط المباشر مع الناس ، لذا عندما يتبنى الخطيب المسؤول،

توجيه الناس إلى قــــراءة كتب ومقـــالات المفكرين والمثقفين المسؤولين تجاه المجتمع في مجالات الحــياة المختلفة ، ودعم المؤسســة الدينية لأنشــــطتهم ، كما أشرت، فإنه يصبح ممكناً مواجهة المشاريع العالمية التي تحدثنا عنها بــظهور طبقــة في المجتمع تعرف معنى الثقافة الحقيقية وتعرف معنى الإسلام الحقيقي .. عندما نصل إلى هذا المستوى ستتغير طرق تعاملنا مع محيطنا وعالمنا ، وسندرك ان المظاهرات السلمية المنددة بفلم أو رسّام كاركاتير تناول نبي الرحــمة غير كافية لتعريف نبــينا إلى العالم ، وان تفجير مبــنى مجلة نشــــرت رسومات مســيئة إلى النبــي وموت عدد من كادرها لا يعالج أو يواجه مشـــروعاً عالمياً يســتهدف الإنســان المرتبط بــدينه ، ولا يعطي تعريفاً صحيحــاً للإســلام وقيمه.. عندما نصل إلى هذا المستوى سنكون قــادرين على صناعة مشروع يحفظ لتراثنا حضوره في الناس ،

ويحافظ على البعد الروحي حياً في الناس بشكل ثقـــافي حضاري مسؤول ، يكون امتداداً لرسالة النبي السماوية ف جانبها الاجتماعي..